ركن المعتزلة :

قدرة الله في مذهب المعتزلة

الدكتور ألبير نصري نادر

— ٢ —

تقول المعتزلة إن الله لا يفعل إلا الأصلح وأن قدرته لا تأتي إلا بما هو كمال ؛ فقط هناك نقطتان ذواتا أهمية كبرى وهما التوفيق بين قدرة الله تعالى وحرية الاختيار عند الانسان من جهة ومن جهة أخرى مسألة الظلم : هل يمكن أن يفعله أم لا يمكن.

قدرة الله وقدرة الانسان على أعماله :

لما كان الله قادراً على كل شيء ، ولما كانت قدرته لا متناهية كذاته ومتجهة دائماً نحو الكمال ، فمن أين إذن الشر والمعصية

السلف فقبضوا على رجل ونودي عليه هذا جزاء من سب عائشة وزوجها (ض) وقدم الرجل بعد النداء وضرب عنقه .

وقال ابن المأمون وفي يوم عاشوراء يعني سنة ٥١٥ هـ (وذلك في عهد الآمر بأحكام الله سنة ١١٢١ م) هيء البساط بمجلس العطايا من دار الملك بمصر التي كان يسكنها الأفضل ابن أمير الجيوش وهو البساط المخصص بعاشوراء وكان يبسأ في غير المكان الجاري به العادة في الأعياد ولا يعمل مدورة خشب بل سفرة كبيرة من أدم والبساط يعلوها من غير مرافع نحاس وجميع الزيادي أجبان وسلائط ومخللات ، وجميع الخبز من شعير وخرج الأفضل من باب (فرد الكم) وجلس على بساط صوف من غير مشورة واستفتح المقرئون واستدعى الأشراف على طبقاتهم وحمل البساط لهم وقد عمل في الصحن الأول الذي بين يدي الأفضل إلى آخر البساط عدس أسود ثم بعده عدس مصفى إلى البساط ثم رفع وقربت صحون جميعها عسل نحل .

ضياء الرفيلي

وما يترتب عليهما من عقاب وألم ؟ إنهما لا يقعان إلا عن كائن حر الاختيار في نيانه وأعماله ، يتردد ثم يختار ويعزم . وفي تردده هذا دليل على عجزه وعدم كماله . ويترتب على اختياره نتائج ملائمة لما اختاره من عمل حسن أو سيء . فأين قدرة الله من عمل الانسان هذا ؟ إن قدرته تعالى تحدها حرية الانسان . والمعتزلة يتمسكون بشدة بهذا المبدأ ويبنون عليه المسألة الأخلاقية بكاملها .

وبما أن الثواب أو العقاب هو نتيجة لما اختاره الانسان بمجرد حريته فلا يمكن الله أن يغير أو يبدل في هذا الثواب أو العقاب . ويقول النظام بهذا الصدد : إن الله لا يقدر على أن يخرج أحداً من أهل الجنة منها ولا يقدر على أن يلقي في النار من ليس من أهل النار . ويقول أيضاً : لو وقف طفل على شفير جهنم لم يكن الله قادراً على القائه فيها وقدر الطفل على إلقاء نفسه فيها[1]. إننا لا نعجب من قول المعتزلة هذا لأنهم أثبتوا من جهة قدرة الله لامتناهية ؛ وهي في مذهبهم ليست سوى الذات ؛ وأثبتوا من جهة أخرى قدرة الإنسان على أنه حر في اختيارها . وبعد ذلك وجدوا أنفسهم أمام مشكلة عويصة وهي هل الله قادر على كل شيء : على الظلم والجور كما هو قادر على العدل ؟ وبمعنى أوضح هل يقدر الله تعالى أن يثيب من استحق العقاب وأن يعاقب من استحق الثواب ؟ بحثت المعتزلة هذه المسألة على ضوء العدل وسنبين فيما بعد الحل الذي أتوا به . وقبل أن نعرض لهذا الحل نذكر هنا عقيدة راسخة عند المعتزلة استنتجوها من قولهم بعدل الله وقدرة الإنسان على أعماله ، وهي أن الله تعالى يعمل لما فيه صالح الخلق ولكنه يترك الإنسان حراً في اختياره . ولما كان الله تعالى لم يزل يعلم ما يختاره الإنسان من أعمال فإنه يأتي أحياناً بلطف من عنده لمساعدة ذوي الإرادة الحسنة . لذلك يقول بشر ابن المعتمر[2] إن الله لو علم من عبد أنه لو أبقاه لآمن كان إبقاؤه إياه أصلح له من أن يميته كافراً[3] فنلمس هنا مسألة اللطف الذي

---

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١١٥ — الشهرستاني : الملل والنحل (على هامش ابن حزم ط ص ٦١) .

(٢) هو أبو سهل الهلال بشر بن المعتمر المتوفى حوالي ٢١٠ هـ أو ٢١٦ هـ وهو مؤسس فرع بغداد . تتلمذ لأبي عثمان الزعفراني وليعقوب بعيد صاحبي واصل بن عطاء رأس المعتزلة .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤١ .

يتدارك به الله الناسى . ولكن المعتزلة تقول إن هذا اللطف لا يمنح إلا فى حالات شاذة نادرة . وخلاص نفوسنا أو هلاكها عائد إلينا ، وذلك بفضل حرية اختيارنا لذلك يقول بشر بن المعتمر وممه جميع المعتزلة إن الله لا يكون موالياً للمطيع فى حال وجود طاعته ، ولامعادياً للكافر فى حال وجود كفره ؛ وإنما يوالى المطيع فى الحالة الثانية من وجود طاعته ، ويعادى الكافر فى الحالة الثانية من وجود كفره[1] .

هذا قول واضح بأن الإنسان بمحض إرادته يصبح مطيعاً أو كافراً ولا قدرة لله فى ذلك . وبعدما يصبح الإنسان مطيعاً (وهى الحالة الثانية التى يتحدث عنها المعتزلة) حينئذ يكون الله موالياً له ؛ وبعدما يصبح كافراً (وهى الحالة الثانية فى الكفر) حينئذ يكون الله معادياً له . ويستدل المعتزلة على ذلك بقولهم إنه لو جاز أن يساعد الله الإنسان فى حال وجود الطاعة فيه لجاز أن يساعده فى حال وجود الكفر فيه . وهذا محال فى مذهبهم لأن الله لا يفعل الشر ؛ والشر فى الحقيقة هو الماضى الموصلة إلى عذاب الله ، على حسب قول قاسم الدمشقى[2] .

الحكمة فى أعمال الله :

تقول المعتزلة إن الله غاية فى الحكمة ولا يفعل إلا الأصلح فهو تعالى لا يعمل شيئاً اتفاقاً أو جزافاً . فعليه توجد قوانين ثابتة ومحددة من لدن حكمته تعالى تسوس جميع الأمور فى هذا العالم ؛ وهذه القوانين خاضعة لحكمة الله الكاملة . فيجب أن ننظر إلى كل مايحدث فى الدنيا كأنه تعبير لهذه الحكمة . وعقل الإنسان ، فى رأيهم ، يمكنه أن يدرك هذا النظام الكامل فى العالم والذى يدل على وجود خالق أزلى حكيم كامل عادل .

هل يضر الله على أنه يظلم ؟

يبدو هذا السؤال غريباً فى مذهب المعتزلة القائلين بأن الله كلى الكمال ؛ ولكنهم بالرغم من ذلك لخصوا هذا السؤال حتى يوضحوا فكرتهم عن الله ويجلوها .

من الجلى أنهم جميعاً يرددون أى فكرة تؤدى إلى الإعتقاد بأن هناك ظلماً فى عمله تعالى وهم يرددون دائماً بأن الله يفعل مافيه صالح الخلق . فإذا بحثت المعتزلة هذا الموضوع فيكون ذلك من جهة القدرة فقط ، وليس من جهة عمل الظلم فعلا من لدنه تعالى . فيكون الموضوع مجرد بحث نظرى . وعلى هذا الشكل نجد حلين مختلفين لهذا السؤال عند المعتزلة .

الحل الأول : القول بالقدرة :

القائلون بها من المعتزلة هم أبوالهذيل العلاف وأبو موسى المردار وجعفر بن حرب وبشر بن المعتمر . وقولهم مقتضى أن الله يمكنه أن يفعل الظلم ولكنه لا يفعله أبداً . وأوضح المردار حجتهم فى ذلك بقوله : إن الله يوصف بالقدرة على العدل وعلى خلافه وعلى الصدق وعلى خلافه ، لأن هذه هى حقيقة الفاعل المختار أن يكون إذا قدر على فعل شىء قدر على ضده وتركه[1] ولكن يضيف المردار إلى هذا قوله : ولو فعل تعالى مقدوره من الظلم والكذب لكان إلهاً ظالماً كاذباً[2] وهذا ما يناقض فكرة الله عند المعتزلة وتعريفهم له تعالى إذ يقولون إن ذات الله هى الكمال والظلم لايقع إلا من كائن غير كامل . فإذن يستند أصحاب هذا الرأى على فكرة الاختيار عند الله ليقرروا أنه تعالى قادر على الظلم ؛ ولكنهم يعودون ويقولون أن الله لايفعله . ويقول أبوالهذيل فى هذا الصدد : إن الله يقدر على الظلم والكذب ولكنه لا يفعلهما لقبحهما وهو تعالى كامل لا يفعل القبيح[3] . ويضيف جعفر بن حرب قوله : لن يسأل هؤلاء المعتزلة : أفعلكم أمان من أن الله لا يفعل الظلم وهو قادر عليه ؟

(أ) قلنا : نعم هو ما أظهر من حكمته وأدلته على نفى الظلم والجور والكذب .

(ب) فيستنتج من ذلك أن المعتزلة القائلين بقدرة الله على الظلم لأنه مختار لأفعاله يذهبون فى آخر الأمر إلى القول بأنه لايفعل الظلم لأنه تعالى كامل ولأن الظلم قبيح فى ذاته . ولهذين السببين يقولون إن الله مع قدرته على الظلم لا يفعله .

(١) نص العبر .
(٢) الخياط : كتاب الأنتصار ص ٨٥ .

(١) الخياط : الأنتصار ص ٦٦ .
(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٥٩ .
(٣) العبر سنانى : الملل على هامش ابن حزم حـ ١ ص ٦١ . الأشعرى : مقالات الاسلاميين ص ٢٠٠ و ٥٥٥ ابن حزم : الفصل حـ ٤ ص ١٤٧ .

الحل الثاني : القول بعصم الذرية :

يقول النظام وعلى الأسوارى والجاحظ والإسكافى إن الله لايوصف بالقدرة على الظلم والكذب وعلى ترك الأصلح من الأفعال إلى ما ليس بأصلح وأحالوا أن يوصف الله بالقدرة على عذاب المؤمنين والأطفال وإلقائهم فى جهنم[1] لأن الخالق العاقل فى رأيهم يقدر أن يفعل الشر كما يقدر أن يفعل الخير لأن إرادة الإنسان الحرة يمكنها أن تختار بين الخير والشر وهى تثاب أو تعاقب حسب ما اختارته من أعمال . ولكن لايوجد هذا الاختيار فى قدرة الله ، لأن قدرته تعالى على قول هؤلاء المعتزلة لم تزل متجهة فقط نحو الخير المطلق . وللنظام حجته فى ذلك . فهو يقول : إن القبح إذا كان صفة ذاتية للقبيح وهو المانع من الاضافة إليه فعلا ففى تجويز وقوع القبيح من الله تعالى قبح أيضاً ؛ فيجب أن يكون مانعاً . ففاعل العدل لايوصف بالقدرة على الظلم ، لأنه لو وصف بالقدرة عليه لكان عنده ميل إلى الظلم . وهذا الميل نقص وضعف مما يناقض ماهيته تعالى الكاملة . وخلافا لمن زعم من المعتزلة أن الله يقدر على أن يظلم ، يقول النظام إننا لا يمكننا أن نصف الله بهذه القدرة لأن ذاته تعالى لم تزل ثابتة وليس فيها أى ضعف أو عجز . لذلك يقول النظام إن الله لايقدر على أن يفعل لعباده فى الدنيا ما ليس فيه صلاحهم ، كما أنه لايوصف بالقدرة على أن يزيد فى عذاب أهل النار شيئاً ، ولا على أن ينقص من نعيم أهل الجنة ، ولا أن يخرج أحداً من أهل الجنة . وليس ذلك مقدوراً له[2] لأن الظلم والكذب لا يقعان إلا من جسم ذى آفة . فالواصف لله بالقدرة عليهما قد وصفه بأنه جسم ذو آفة[3] . ثم هناك قول آخر شديد لأبى جعفر الإسكافى فى هذا الصدد إذ يقول أن الأجسام تدل بما فيها من العقول والنعم التى أنعم الله بها عليها على أن الله ليس بظالم لها . والعقول تدل بأنفسها على أن الله ليس بظالم . فليس يجوز أن يجامع دفوع الظلم عنه مادل لنفسه على أن الظلم ليس يقع منه[4] .

* * *

(١) الأشعرى : مقالات الاسلاميين ص ٥٥٤ .
(٢) الشهرستانى الملل على هامش ابن حزم جـ ١ ص ٦١
(٣) الخياط : الانتصار ص ٢٧ .
(٤) نص المصدر ص ٩٠ .

هذان القولان : القول بقدرة الله على الظلم والقول بعدم قدرته تعالى عليه ، ولو أنهما مختلفان إلا أن النتيجة التى يصلان إليها واحدة وهى أن الله لا يظلم أبداً حتى ولو قدر على الظلم . إلا أن أصحاب القول الأول بنوا رأيهم على فكرة وجود الاختيار عند الله فى حين أن أصحاب القول الثانى لايقولون بهذا الاختيار لأن الله فى زعمهم غير مختار وهو الكمال المطلق ، والاختيار تفضيل أمر على أمر وهذا ليس من خصائص الله تعالى . والذى جعل أصحاب القول الأول يتراجعون ويقولون إنه تعالى لايأتى الظلم هو أن الظلم قبيح فى ذاته وأن الله كمال مطلق . فالفارق بين هؤلاء وهؤلاء فارق نظرى بحت .

أنيس نصرى نادر
دكتور فى الآداب والفلسفة

إعلان

تعلن إدارة الكهرباء والغاز لمدينة القاهرة أنه قد تجمع لديها عدد من عدادات كهرباء مملوكة للمشتركين وخزنت بالمخازن بعد فصلها من أماكنها ولم تستطع الادارة الاستدلال على العناوين الحالية لأصحابها .

وترجو الادارة كل من له عداد خاص لطرفها وفصل من مكانه أن يسارع بتقديم المستندات الثبتة لملكيته لاستلام العداد فى موعد نهايته أول ديسمبر سنة ١٩٤٩ .

ولن تلتفت الادارة إلى أى طلب يقدم إليها فى هذا الشأن بعد التاريخ المذكور . ٣٣٢٤